قصة آية

12

إبراهيم وآية البعث

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدي مصطفى

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



إبراهيم وآية البعث

قَالَ (تَعَالَى) :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[البقرة : ٢٦]

نَظَرَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَى قَوْمِهِ فَوَجَدَهُمْ يَخْبِطُونَ فِي دَيَاجِيرِ الظَّلَامِ ، وَيَتَرَدَّدُونَ فِي مَهَاوِي الرَّدَى ، فَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِرَغَدِ الْعَيْشِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ عَبَدُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، صَنَعُوهَا بِأَيْدِيهِمْ وَعَكَفُوا عَلَى عِبَادَتِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ (تَعَالَى) .

وَلَمْ يَكُنِ النَّمْرُوذُ حَاكِمُ هؤُلاءِ الْقَوْمِ أَفْضَلَ حَالاً من قَوْمِه ، فَقَدْ كَانَ كَافِرًا بِاللَّه ، ظَالمًا مُسْتَبِدًّا ، هيَّأَ لَهُ غُرُورُهُ ذَاتَ يَوْمٍ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِه إِلهًا يَعْبُدُهُ قَوْمُه فَجَمَعَ وُزَرَاءَهُ ومُسْتَشَارِيهِ وقَالَ لَهُمْ :

ـ لَقَدْ آنَ الأَوانُ أَنْ يَعْبُدَنِى هَؤُلاءِ النَّاسُ بَدَلاً مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ . فَأَنَا الَّذِى أَرْزُقُهُمْ وأَنَا الَّذِى أُحْيِيهِمْ وأُمِيتُهُمْ .

وفِى انْصِيَاعٍ تَامٍّ قَالَ لَهُ مُسْتَشَارُوهُ :

ـ أَنْتَ جَدِيرٌ بِالْعِبَادَةِ ، وسَوْفَ نَدْعُو النَّاسَ جَمِيعًا لأَنْ يَعْبُدُوكَ .

ولَمْ يَكُنْ أَمَامَ هَؤُلاءِ النَّاسِ سِوَى المُوافَقَةِ والإِذْعَانِ ، فَالنَّمْرُوذُ ذُو قُوَّةٍ وبَطْشٍ شَدِيدٍ ،

وَلا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مُوَاجَهَتِهِ ، كَمَا أَنَّ الْجَهْلَ كَانَ مُتَفَشِّيًا بَيْنَهُمْ فَلَمْ يُفَكِّرُوا فِى عَرْضِ الأَمْرِ عَلَى عُقُولِهِمْ .

وَفَكَّرَ نَبِىُّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام مَاذَا يَصْنَعُ ؟ وَكَيْفَ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ الَّذِى خَلَقَ النَّمْرُوذَ وَوَزَّعَ الأَرْزَاقَ وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ .

وَقَرَّرَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام أَنْ يُحَطِّمَ هَذِهِ الأَصْنَامَ الَّتِى يَعْبُدُهَا النَّاسُ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَخُطْوَةٍ أُولَى بَعْدَهَا يُوَاجِهُ النَّمْرُوذَ وَيُوَضِّحُ لَهُ فَسَادَ مُعْتَقَدِهِ وَسُوءَ صَنِيعِهِ .

وَانْتَظَرَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حَتَّى انْصَرَفَ قَوْمُهُ بَعْدَ احْتِفَالٍ لَهُمْ فِى دَارِ النَّارِ وَقَالَ فِى نَفْسِهِ :

ـ تَاللَّه لأَكِيدنَّ أَصْنامكُم بَعْدَ أَنْ تُولُّوا مُدبِرِين .

ومَا إِنِ انْصَرَفَ هؤلاءِ النَّاسُ حَتَّى أَمْسَكَ إِبْراهِيمُ عليه السلام بِمعْولِه وانْقضَّ بهِ علَى الأَصْنام ذَاتَ الْيَمِينِ وذَاتَ الشِّمالِ حَتَّى أَتَى علَيْهَا جَميعًا ، ولَمْ يَبْقَ إِلا الصَّنَمُ الأَكْبرُ ، فَاتَّجَه نَحْوَهُ وعَلَّقَ مِعْولَهُ فى عُنُقِهِ وتَرَكَ المكَانَ وانْصرَفَ وهُوَ فى دَهْشَةٍ من أَمْرِ هَذه الْحِجَارَة الَّتِى يَتَّخِذُهَا قَوْمُهُ آلِهَةً ، ولَوْ كَانَتْ آلِهَةً حقًّا ـ كَمَا يزْعُمُونَ ـ لَدَافَعَتْ عَنْ نَفْسِهَا .

واجْتَمَعَ قَوْمُ إِبْراهِيمَ فى صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالى لِكَىْ يُمارِسُوا عِبَادَتَهُمْ كَالْمُعْتَاد فَوَجَدُوا الأَصْنَام مُحطَّمَةً فَقَالُوا فى دَهْشَةٍ :

ـ مَنِ الَّذِى فَعَلَ هذا بآلِهَتنا ؟ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالمِينَ .

فَقَالَ أَحَدُهُمْ :

ـ لا يَجْرُؤُ أَحَدٌ أَنْ يفْعَلَ هذا إِلاَّ إِبْراهِيمَ عليه السلام ، فَهُوَ الْوَحِيدُ الَّذِى يَسْخَرُ مِنْ آلِهَتنا وقَدْ سَمِعْتُهُ يَتَهَكَّمُ بِنَا ويُهَدِّدُ بتَحْطِيمِها .

وأَجْمَعَ هؤلاءِ النَّاسُ عَلَى أَنَّ إِبْراهِيمَ عليه السلام هُوَ الَّذِى حَطَّمَ أَصْنامَهُمْ فَشَكَوْهُ إِلى الملِكِ ، فَأَمَرَ بالإِتْيانِ بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لِكَىْ يُعَاقِبَهُ .

ولَمْ يُنْكِرْ إِبْراهِيمُ عليه السلام ما صَنَعَهُ ، وراحَ يُذَكِّرُ النَّاسَ بِسُوءِ صَنِيعِهِمْ فَقَالَ لَهُمْ :

ـ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مالا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا ولا يَضُرُّكُمْ ، أُفٍّ لَكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟

ورَأَى النَّمْرُوذُ أَنَّ كَلامَ إِبْراهِيمَ عليه السلام يُوشِكُ أَنْ يُؤَثِّرَ فى النَّاسِ ، فَهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَى الإِقْناعِ والْعَقْلِ فَقَاطَعَهُ قَائِلاً :

ـ اجْعَلْ كَلامَكَ مَعِى ، فَأَنَا الَّذِى أَقْدِرُ عَلَى مُحَاوَرَتِكَ ومُجَادَلَتِكَ .

ثُمَّ سَأَلَ إِبْراهِيمَ عليه السلام قَائِلاً :

ـ مَنْ رَبُّكَ ؟ وما قُوَّتُهُ ؟

فَقَالَ إِبْراهِيمُ عليه السلام :

ـ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى ويُمِيتُ .

وهُنا اسْتَدْعَى النَّمْرُوذُ رَجُلَيْنِ فَأَمَرَ بِقَتْلِ أَحَدِهما وعَفَا عَنِ الآخَرِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى إِبراهِيمَ عليه السلام وقَالَ فى زَهْوٍ :

ـ انْظُرْ إِلَىَّ ، فَأَنَا أُحْيِى وأُمِيتُ كَذَلِكَ ، لَقَدْ

أَمَرْتُ بِقَتْلِ هذَا الرَّجُلِ فَأَمَتُّهُ ، وأَمَرْتُ بِالْعفوِ عَنْ هَذَا فَأَحْيَيْتُهُ .

وعِنْدَئِذٍ قَالَ إِبْراهِيمُ عليه السلام :

ـ إِنَّه اللَّهَ يُحْيِي بِأَنْ يَرُدَّ الرُّوحَ إلى جَسَدٍ مَيِّتٍ .

فَقَالَ النَّمْرُودُ :

ـ هَلْ عَايَنْتَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ ورَأَيْتَهُ بِعَيْنِكَ ؟

ولَمْ يَقْدِرْ إِبْراهِيمُ عليه السلام أَنْ يَقُولَ : نَعَمْ رَأَيْتُهُ ، فَانْتَقَلَ إِلى حُجَّةٍ أُخْرَى ، فَقَالَ للنَّمْرُوذِ :

ـ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ ، فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ .

فَبُهِتَ النَّمْرُوذُ ولَمْ يَحِرْ جَوَابًا ، واسْتَبانَ عَجْزُهُ أَمَامَ قَوْمِهِ ، فَعَقَدَ العَزْمَ عَلَى التَّخَلُّصِ

مِنْ إِبْراهِيمَ عليه السلام بِإِلْقَائِه فى النَّارِ .

وَنَجَّا اللَّهُ نَبِيَّهُ إِبراهِيمَ عليه السلام مِنَ النَّارِ ، وَلَمْ يَنْسَ إِبْراهِيمُ عليه السلام سُؤَالَ النَّمرُوذِ لَهُ :

ـ هَلْ عَايَنْتَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ ؟

فَأَرَادَ أَنْ يُرِيَهُ اللَّهُ مُعْجِزَةَ إِحْيَاءِ الْمَوتَى حَتَّى يَتَصَدَّى لِلنَّمْرُوذِ وَأَمْثَالِه عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَقِينٍ ، وَإِنْ كَانَ فى قَرَارَةِ نَفْسِهِ يُوقِنُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وَبَيْنَمَا كَانَ إِبْراهِيمُ عليه السلام يَمُرُّ بِبُحَيْرَةٍ ، رَأَى حُوتًا مَيِّتًا نِصْفُهُ فى الْبَحْرِ وَنِصْفُهُ فى الْبَرِّ ، وَرَأَى أَسْمَاكَ الْبَحْرِ وَحَيَوَانَاتِ الْبَرِّ تَأْكُلُ مِنْ هَذَا الْحُوتِ ، وَجَاءَ إِبْلِيسُ إِلَى إِبْراهِيمَ عليه السلام وَحَاوَلَ أَنْ يُوَسْوِسَ لَهُ فَقَالَ فى خُبْثٍ :

ـ مَتى يَجْمَعُ اللَّهُ هَذِهِ الأَجْزاءَ مِنْ بُطُونِ هَؤُلاءِ ؟

وكَانَ إِبْراهِيمُ عليه السلام يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ وسَاوِسَ الشَّيْطَانِ بِقُوَّةِ إيمانِهِ باللَّهِ ، ويَقِينِهِ بِأَنَّ اللَّهَ (تَعالَى) هُوَ المحيي والمميتُ والمبْدئُ والمعيدُ .

وبَعْدَ جِهَادِ إبْراهِيمَ عليه السلام فِي اللَّهِ ودَعْوَتِهِ وإِخْلاصِهِ ، أَرَادَ اللَّهُ (تَعَالَى) أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلاً ويَخْتَصَّهُ بِالرِّسالَةِ والنُّبُوَّةِ وأَنْ يَكُونَ خَلِيلَهُ الَّذِي يُخْرِجُ بِهِ اللَّهُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ .

وأَرادَ مَلَكُ الموْتِ أَنْ يُبَشِّرَ إِبْراهِيمَ عليه السلام بِهَذِهِ الْبُشْرَى ، فَاسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي ذَلِكَ فَأَذِنَ لَهُ ، فَأَتَاهُ فَقَالَ :

ـ جِئْتُكَ أُبَشِّرُكَ بِأَنَّ اللَّهَ (تعالَى) اتَّخَذَكَ خَلِيلاً .

وتهلل وجه إبراهيم عليه السلام وملأت الفرحة قلبه وأراد أن يستوثق مما سمع ، فسأل ملك الموت قائلاً :

ـ وما علامة ذلك ؟

فأجابه ملك الموت قائلاً .

ـ علامة ذلك أن يجيب الله دعاءك ، ويحيى الموتى بسؤالك .

وانطلق إبراهيم عليه السلام وذهب ، وتذكر سؤال النمروذ له :

هل عاينت ذلك ؟ كما تذكر وسوسة الشيطان له ومحاولته زعزعة إيمانه بالله ، ثم أراد أن يقضى على هذه الخواطر فى نفسه ، كما أراد أن يطمئن أن الله (تعالى) يجيب دعاءه كما

أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ مَلَكُ المَوْتِ ، فَقَالَ :

ـ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى ؟

فَقَالَ لَهُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) :

ـ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام :

ـ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي بِعِلْمِي أَنَّكَ تُجِيبُنِي إِذَا دَعَوْتُكَ ، وَأَنَّكَ اتَّخَذْتَنِي خَلِيلاً .

وَعِنْدَئِذٍ أَمَرَهُ اللَّهُ (تَعَالَى) أَنْ يَأْخُذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَيَذْبَحَهَا وَيُقَطِّعَهَا وَيَمْزِجَ لَحْمَهَا بِرِيشِهَا وَدَمِهَا وَعَظْمِهَا ، ثُمَّ يُقَسِّمَهَا ، وَيَضَعَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ جُزْءاً مِنْهَا ثُمَّ أَمَرَهُ (تَعَالَى) قَائِلاً :

ـ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً .

فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام الطَّيْرَ كَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ ، فَلَمَّا فَعَلَ

صَارَ كُلُّ جُزْءٍ يَنْضَمُّ إِلَى مِثْلِهِ ، وَعَادَتِ الأَشْلاءُ إِلَى أَمَاكِنِهَا ، وَسُرْعَانَ مَا سَرَتْ فِيهَا الْحَيَاةُ وَرَجَعَتْ إِلَيْهَا الرُّوحُ ، وَسَعَتْ إِلَيْهِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَسَارَتْ إِلَيْهِ بِإِرَادَتِهِ .

وَرَأَى إِبْرَاهِيمُ عليه السلام بِعَيْنَيْهِ إِحْيَاءَ اللَّهِ الْمَوْتَى وَإِعَادَةَ الْحَيَاةِ لِلأَمْوَاتِ ، وَعِنْدَئِذٍ شَكَرَ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ الْعَزِيزَ الْحَكِيمَ .

إِنَّ سُؤَالَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لِرَبِّهِ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟ لَمْ يَكُنْ صَادِرًا عَنْ شَكٍّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ (تَعَالَى) ، وَإِنَّمَا هُوَ طَلَبُ الْمُعَايَنَةِ ، مَعَ يَقِينِهِ التَّامِّ أَنَّ اللَّهَ (تَعَالَى) يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام هُوَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ ، وَقَدْ قَالَ (تَعَالَى) عَنْهُ :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
(١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
(١٢١) وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
(١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

[النمل : ١٢٠ : ١٢٣]

وقدْ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ عنْ إبْراهيمَ عليه السلام :

« اتَّخَذَ اللَّهُ إبراهيمَ خَليلاً لإطْعَامِهِ الطَّعَامَ وإفْشَائِهِ السَّلامَ وصَلاتِهِ باللَّيْلِ والنَّاسُ نِيامٌ »

(رواه جابر بن عبد الله)

ويُسْتَفَادُ منْ هَذه الآيَة الْكَريمَة أنَّ اللَّهَ (تعالى) هُوَ الْمُحيى والمُميتُ وهُوَ الْقَادِرُ علَى كُلِّ شَىْء لا يُعْجزُهُ شَىْءٌ فى الأَرْضِ ولا فى السَّماءِ .

والآياتُ الْكَريمَةُ والأَحَاديثُ الشَّريفَةُ الَّتى

تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَيُمْكِنُ الرُّجُوعُ إِلَيْهَا فِى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وكُتُبِ الْحَدِيثِ .

والَّذِى يَخْرُجُ بِهِ الإِنْسَانُ مِنْ ذَلِكَ هُوَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِلقَاءِ اللَّهِ وأَنْ يَعْمَلَ لِلآخِرَةِ . فَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ يَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ :

ـ مَتَى السَّاعَةُ ؟

فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ :

ـ ومَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟

كَمَا يَجِبُ أَنْ نَعلَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ هُوَ الْكِتَابُ الْوَحِيدُ الَّذِى أَنْصَفَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ وأَعْطَاهُمْ مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ تَكْرِيمٍ ، وهُوَ الْوَثِيقَةُ الْوَحِيدَةُ الصَّادِقَةُ الَّتِى يَجِبُ أَنْ نَعْتَمِدَ عَلَيْهَا ونَرْجِعَ إِلَيْهَا فِى مَعْرِفَةِ أَخْبَارِ السَّابِقِينَ .

وقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ عنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللَّه فَتَعَلَّمُوا من مَأْدُبَته ما اسْتَطَعْتُمْ ، إِنَّ هَذَا الْقُرآنَ حَبْلُ اللَّه وهُوَ النُّورُ المبِينُ ، والشِّفَاءُ النَّافعُ ، عِصْمَةٌ مَنْ تَمَسَّكَ به ، ونَجَاةُ مَنِ اتَّبَعَهُ ، لا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ ، ولا يزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ ، ولا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، ولا يَخْلُقُ من كَثْرَةِ الرَّدِّ ، فَاتْلُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجُرُكُمْ علَى تلاوَته بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ ألم حَرْفٌ ولَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ ولامٌ حَرْفٌ ومِيمٌ حَرْفٌ » .

وقَدِ احْتَوَى الْقُرْآنُ علَى الْقَصَصِ والمواعَظِ والأَخْبَارِ ، وحَتَّى بَعْضِ الإِشَارَاتِ الْعِلْمِيَّة والطِّبِّيَّةِ لِكَيْ يُنَبِّهَ النَّاسَ إِلى عَجَائِبِ قُدْرَةِ اللَّهِ وصُنْعِه .

رقم الإيداع : ١٧٥٧٧

الترقيم الدولي : ٧ـ ٣٦٢ـ ٢٦٦ـ ٩٧٧